خُطواتٌ أُخرى ... في طُرُقٍ غيرِ مُعبَّدة

وسيم الكردي

كلما شققنا درباً نجد أن أمامنا دروباً أخرى ينبغي شقها، كل درب يفضي إلى آخر، يسلم له نفسه ويعاركه في الآن نفسه، وفي عملنا في مركز البحث بتنا نرى أن على كل شيء أن يتشابك مع كل شيء آخر، كل شيء ينبغي أن يتضافر في علائقية تسمح بالتواصل وصلاً ونقداً، إتباعاً وتحرراً، تآلفاً وتجاوزاً، وفيما نحاول من عمل، فإننا نتطلع إلى مساهمة تتخلق من الناس وتجاربهم، ننجح حيناً ونخفق أحياناً، وفي هذا المسار/ المسير تتراءى معارف وتنحجب أخرى، وينبني مسار آخر ومسير مختلف . . . ولا نركن لما هو معبد ومطروق فحسب، بل نحاول أن نشق دروباً أخرى.

مؤتمر القطان الثالث

يتزامن صدور هذا العدد الثلاثين من مجلة «رؤى تربوية» مع انعقاد مؤتمر القطان الدوري الثالث، وهو مؤتمر مخصص للمعلمين وتجاربهم، وينعقد تحت عنوان «تجارب تطبيقية حول ممارسات التعليم ومعارفه»، وقد أوردنا في التصور الخاص به ما يلي: «لن يتغير التعليم لا كممارسات ولا كسياسات إذا بقينا نتحدث عن (مواصفات التعليم الجيد)، دون أن ننخرط في فعله، ولذلك يأتي هذا المؤتمر تتويجاً لمسار طويل من العمل المستند إلى فعل المعلمين وممارساتهم في المجال الصفي، فعل يقوم على قراءة الممارسات والعمل على تطويرها وإعادة وضعها في سياقات تتيح للمعلمين والطلاب مساحات أكبر من التجريب، والتطوير، والتعبير، والمراجعة، وإعادة النظر في الكثير من مسلمات التعليم وإشكالاته».

ولقد اختار الباحثون في المركز مجموعة من التجارب التي قدّمت إليه من قبل معلمين ومعلمات، وهي جميعها تجارب مبنية على الواقع، وترتبط بالمنهاج الدراسي في صورته الأشمل، ويظهر في هذه التجارب الجهد الهائل على مستويات عدة: الأول طبيعة التجارب من حيث المحتوى والتوجه. والثاني الاجتهاد في تحويل التجربة إلى نصوص مكتوبة ومرئية. أما الثالث، فهو التحدي في كيفية عرضها أمام جمهرة المعلمين في المؤتمر.

وحين نتحدث عن مؤتمر يقوم في معظمه على تجارب المعلمين الصفية، فإننا لا بد أن نستذكر قليلاً تجربتنا في المؤتمرين الأول والثاني، فقد كان الأول خليطاً ما بين باحثين وتربويين ومعلمين، أما الثاني فقد جاء مزيجاً بين باحثين يعملون مع المعلمين والمعلمين أنفسهم. أما هذا المؤتمر الثالث، فيشكل المعلمون عموده الفقري ولحمه ودمه وروحه وأنفاسه. تأتي التجارب فيه عبر جهد مشترك ما بين باحثي مركز القطان والمعلمين الذين أبدوا شغفاً بعملهم وبتطويره. إنها البداية التي تنتقل بالتعليم من الكتب والمساقات النظرية إلى الممارسة الفعلية، هذه الممارسة التي تقوم على التجريب والتأمل والنظر وإعادة النظر والتحاور وإنتاج المعرفة. سنقوم في العدد القادم الحادي والثلاثين بتخصيص ملف عن المؤتمر يتضمن مداخلاته وحواراته، متطلعين إلى توسيع دائرة التحاور وتعميقها كي تسهم في تقديم نماذج تربوية واقتراحات تعليمية، لا يتم الاحتذاء بها، بل لتشكل ملهماً يمكن كل معلم ومعلمة من أن يخطّ مساره وتجربته، ويعرضها، ففي كل تجربة غنى يخصها ويختص بها، وتستحق أن تتخذ موقعها كي تشكّل ملهماً آخر لآخرين.

مركز مصادر معلمين

يتزامن، أيضاً، مع هذا العدد الشروع في إنشاء مركز مصادر للمعلمين في قرية نعلين المحاذية لجدار الفصل العنصري، وقد جاء هذا المركز في ضوء رؤية تتطلع إلى «تمكين المعلمين ليكونوا قادرين على تطوير عملهم ومجتمعاتهم في القرى والمدن، بإشراف مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، يقودها المعلمون أنفسهم، وتتيح برامج ومواد ووسائل ووسائط للمعلمين، وكذلك تسهم في تقديم نشاط ثقافي/ تربوي للمجتمع المحلي برمته . . . ويتطلع مركز البحث من خلال تأسيس هذا المركز (وغيره من المراكز في المستقبل) إلى الانتقال إلى مستوى جديد من العمل مع المعلمين، بحيث يقوم بتقديم الدعم في تدريب المعلمين ومنسقي المراكز وإرشادهم وإسنادهم على مدار العام، وتقديم دعم معرفي وبرنامجي وإداري متواصل على مدار العام، ومساندة المراكز من خلال استقطاب التمويل والترويج لعملها بين المعلمين. وتقوم هذه المراكز بدورها من خلال المنسقين بتقديم المصادر المعرفية للمعلمين في المناطق التي تقام فيها المراكز، والأخرى المحيطة بها، وبرامج تدريب وتمكين للمعلمين في هذه المناطق، تماثل البرامج التي يقدمها المركز

للمنسقين، إضافة إلى برامج واستضافات ثقافية متنوعة بالإفادة من برامج المؤسسة الأخرى».

ويأتي الشروع في تأسيس هذا المركز ليشكل نموذجاً استكشافياً يمكننا من النظر في التجربة وتقييمها، وقد تضافرت جهود عديدة لإنشائه، تمثلت في وجود معلمين متطوعين من القرية نفسها لإدارة نشاط المركز، وفي قيام جمعية نعلين لتطوير العمل الاجتماعي والتنموي بتقديم مقر للمركز ضمن قلعة قام بترميمها مركز رواق للمعمار الذي لفت نظرنا إلى الموقع وساند الفكرة، وأتت مساهمة مؤسسة مجموعة الاتصالات الفلسطينية "فلستيا" المالية لتأسيس هذا المركز وتمويل أنشطته للعام الأول لتكمل الحلقات الأساسية التي تتضافر فيها جهود مركز القطان مع المؤسسة المحلية مع المؤسسة الاقتصادية لإنشاء مشروع نتطلع إلى أن يكون ريادياً وملهماً، للشروع في إنشاء مراكز أخرى في مواقع أخرى تقوم على جهود وطنية من جميع المجالات.

التقرير التربوي الدوري

بدأ المركز بالعمل الأولي التمهيدي لإصدار تقرير تربوي يتناول تعليم الفلسطينيين، وتكمن الفكرة الرئيسية منه، كما ورد في التصور المعلن عنه «في إطلاع شرائح المجتمع ذات العلاقة بالتعليم على سير هذه العملية؛ سواء بجانبها الإيجابي أم السلبي، أي نقل العملية التربوية والتعليمية من الحيز الخاص إلى الحيز العام، وذلك بفتح النقاش والحوار على مساحات أوسع، ينخرط فيها الطلاب والمعلمون والآباء والأمهات والفنانون والسياسيون والناشطون الاجتماعيون والثقافيون وغيرهم، وذلك لأننا نرى أن مثل هذه النقاشات والحوارات تثري العملية التعليمية والتربوية في فلسطين على نحو يزيد من فعاليتها وقدرتها على المساهمة في الوصول إلى أهداف المجتمع والأفراد وتطلعاتهم. فمن حق الجميع أن يعرف ماذا يحدث في التعليم، وأن يبدي رأيه أيضاً».

إن هذا التقرير سيتطلب الكثير من العمل والجهد والاستقصاء والتقصي وجمع البيانات والمعلومات والوثائق والآراء، كما سيتطلب الكثير من اللقاءات والاجتماعات والمقابلات مع القطاعات المجتمعية المختلفة، وبخاصة المعلمين والطلاب والأهالي . . . وغيرهم. ولا يمكن للتقرير أن يصدر دون تساند الجميع، فهو عمل ضخم يتغيا من وراء إصداره ليس توصيف الواقع التربوي وتحدياته فحسب، بل يتطلع إلى أن يحث كل مواطن من موقعه على أن يرى إمكانية لمساهمة من نوع ما في نظام التعليم. أن يدفعه التقرير للقول أنا يمكنني أن أساهم هنا، ومهما كانت المساهمة صغيرة ومحدودة، فإنها ستكون ذات شأن في إحداث التغيير.

إننا نشتغل على هذا التقرير كي يكون بإمكان كل الناس أن يتفاعلوا معه، حيث يمكن لعضو المجلس التشريعي أن ينخرط في قضايا تشريعية لها علاقة بالتعليم، وأن يقوم الإعلامي بدور إعلامي من نوع ما، وأن يقوم الفنان أو الأديب بدور ما، أو المزارع، أو التاجر، أو ولي الأمر، أو الحزبيون، أو المؤسسة المجتمعية، أو صانع القرار، أو المنخرط في رسم السياسات، أو المعلم، أو الباحث، أو . . . الخ.

***

إن هذه المشروعات الثلاثة جميعها تصب في سياق واحد، يتمثل في محاولة تقديم اقتراحات لتعليم أفضل لأبنائنا من خلال التأسيس على ما هو موجود من خبرات ومعارف، وتطويرها وتبادلها ومحاورتها واستلهامها؛ فيأتي المؤتمر كي يعرض فيه المعلمون تجاربهم، ويمكّنون المعلمين الآخرين من محاورتها. ويأتي مركز المصادر كي يوسع دائرة المعلمين المنخرطين في فعل التغيير، ويمكّنهم من المساهمة في الفعل المجتمعي، ليس في سياقه التربوي التعليمي فحسب، بل في السياق الثقافي الاجتماعي الأشمل. أما التقرير، فليخبرنا بموقعنا، وإلى أين ينبغي أن نتحرك، وما الذي ينبغي علينا فعله، ليس كتربويين فحسب، بل كأعضاء في المجتمع.

***

وهناك الكثير من البرامج والأنشطة التي نعمل عليها حالياً، أو نخطط لعملها مستقبلاً، وتقع في السياق نفسه؛ منها برنامج التكون المهني، واستخدام المحاكاة التفاعلية والأفلام التعليمية في تعلم وتعليم العلوم، والرسوم المتحركة، والتكون المهني متعدد الأنساق في الثقافة العلمية لمرحلة الطفولة المبكرة، والمراحل الأساسية الأولى، والمسرح في التعليم، والطفولة المبكرة والدراما كسياق للتعلم عبر اللعب، وبرنامج الإرشاد البحثي . . . وغيرها. وهي جميعها تنطلق من العمل مع المعلمين، كفاعلين اجتماعيين، في ممارستهم الواقعية مع طلابهم ومجتمعهم وفي تأملهم لتجاربهم، وفي توفير المناخات والموارد والمصادر التي تمكّن من الإبداع، وإنتاج معرفة جديدة في ضوء الاشتباك مع معرفة منجزة يتم محاورتها على مستوى الذات الاجتماعية، وفي علاقة مع الآخرين المجتمعيين. ولقد أوردنا في «ورقة السياسات البحثية» التي أنجزناها كمحصلة لتجربة السنوات الماضية من ناحية، ولتطلعنا نحو المستقبل من ناحية أخرى، ما نصه: «لا بد من مقاربة التعليم كممارسة مهنية واجتماعية في شكلها الشمولي المتكامل، فالمعلم يحشد في هويته المهنية والإنسانية مكونات متعددة، فهو شخص في علاقة وفي حالة نماء وتحول، يمارس مهنة وعملاً ضمن تصورات مركبة شخصية وعامة، وهو جزء من مجتمع وصاحب مشروع فيه، وهذه المكونات يتم التعبير عنها بالكلام والممارسة والشعور، وبأشكال واعية وصريحة، وأخرى مضمرة وغير معلنة أو غير مدركة، وهنا تكمن أهمية العمل البحثي بكل توجهاته ومنتظراته، وبشكل خاص البحث الذي يقصد الكشف عن عمل التصورات والعمل عليها، بهدف إعادة بنائها، إعادة البناء التي تتركز على إنتاج معانٍ وديناميات تعيد تعريف المعلم وتمكنه من التعرف على ذاته وإعادة تعريفها، لا بوصفها جملة من الكفايات والمهارات، أو مجموعة من القطائع والانفصالات، بل كهوية فكرية مهنية تجمع الشخص والدور والمهنة، في صيغة تحقق الشخص كمشروع ضمن المشروع العام، بتوجهاته الاجتماعية والإنسانية».